ضرورة الاجتهاد والتجديد في علم الكلام

عبد الجبار الرفاعي

يتفق الدارسون على أن علم الكلام نشأ في مرحلة مبكرة من التاريخ الاسلامي ، وكانت مجموعة من العوامل المحلية في الحياة الاسلامية من البواعث الاساسية لانبثاق هذا العلم ، وقد تصدرت مسألة الخلاف بشأن ((الامامة)) وقيادة الأمة بعد غياب الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) تلك البواعث ، كما غذّت الحروب الأهلية في مرحلة لاحقة الجدل بين المسلمين ، فظهرت استفهامات متنوعة في فضاء الصراع السياسي ، وما انفكت هذه الاستفهامات تترسخ وتتشعب وتتوالد في صيغ جديدة بمرور الأيام.

وبعد تمدد الاسلام خارج الجزيرة العربية واستيعابه شعوباً متنوعة في بلاد الشام والعراق وايران ومصر وشمال افريقيا ، واجهت المسلمين جملة من الآراء والأفكار التي تنتمي الى الذاكرة التاريخية للملل والنحل المعروفة في هذه البلدان ، وما تمخض عن احتكاكها بعقيدة التوحيد ومواقف المسلمين ، فأضفى المسلمون الى أسئلة واشكالات لم يسمعوا بها من قبل بخصوص حقيقة الايمان ، ومنزلة صاحب الكبيرة ، والقضاء والقدر ، وطبيعة الصفات الإلهية ، وغيرذلك ، فولدت في سياق الجدل العقائدي جملة مفاهيم تصوغ رؤى مختلفة حيال تلك الاستفهامات والاشكالات. وكانت هذه الرؤى عبارة عن اجتهادات متنوعة في المسائل الكلامية ، وبمرور الأيام تبلورت مواقف مذهبية تتشكل كل طائفة منها في منظومة عقائدية ، فأضحت تمثل اتجاهات عقائدية ، تعمل على التبشير بارائها وتسعى لاستقطاب الاتباع والمؤازرين.

صورة متخيلة للقاضي عبد الجبار الهمذاني

وفي العصر التالي انفتح المسلمون على الميراث الثقافي للحضارة اليونانية، ومدرسة الاسكندرية، والهند، وبلاد فارس، واستوهامهم المنطق الأرسطي، والهيات افلوطين ومدرسة الاسكندرية، فنفذت مقولاتها في المباحث الكلامية، واكتسى علم الكلام بالتدريج بهذه المقولات، وصارت قواعد المنطق الارسطي هي المعايير النهائية للتفكير والبحث والجدل الكلامي، وما انفك التفكير الكلامي حتى هذه اللحظة يتحرك في قنوات تلك القواعد، ويستند اليها كمرجعية حاسمة في أية محاولة للاستدلال والمناقشة مع الآخر.

وتبلورت في ذلك العصر الكثير من الاجتهادات الكلامية، وتباينت مواقفها، وتحدثت في شتى المسائل، مما يرتبط بالذات والصفات والأفعال، والخير والشر، والجبر والاختيار، واختلفت الآراء في كل واحدة من هذه المسائل بنحو سادت المشهد الثقافي تعددية فكرية متميزة، وأسهم قطاع واسع من العلماء والدارسين بوجهات نظرهم في مختلف المسائل، ولم يعد التفكير الكلامي حكراً على طبقة خاصة، تمنح نفسها حريات شاملة فيما تسلب سواها حق التفكير.

وكان لتوفر هامش حرية للتفكير أثر بالغ في نمو وازدهار عدة تيارات فكرية، من أبرزها الشيعة والمعتزلة والاشاعرة، ويضم كل تيار أجيالاً متتالية من المجتهدين في علم الكلام، الذين اشتغلوا بترسيخ وتطوير مدارسهم الكلامية، وغالباً ما تجاوزوا الرؤى وربما بعض الأسس التي صاغها أسلافهم، حتى اشتهر لديهم ظهور أكثر من اتجاه في اطار المدرسة الواحدة، كما عرفت ظاهرة استقلال التلميذ عن استاذه وعدم تقليده له، وربما مناقشته والرد على آرائه، وتبني مواقف كلامية لا تطابق ما كان يتبناه الأستاذ.

ومراجعة سريعة للتراث الكلامي ترينا عدداً وفيراً من المؤلفات، ممن نقض فيها التلميذ آراء أستاذه.

ولولا توفر أرضية مناسبة، وشيوع تقاليد ثقافية ترعى حق الاختلاف، وتؤمن بالتعددية الفكرية، لما وجد ذلك المناخ العلمي، الذي تبلورت فيه أبرز المدارس الكلامية في التاريخ الاسلامي. غير ان هامش الحرية بدأ يذبل ويضمحل، حين طغت روح التكفير في ذهن فقهاء القصر السلطاني، وتعاون المتوكل العباسي (٢٣٢-٢٤٧هـ) مع أولئك الفقهاء، وفرض ترسيمة كلامية محددة، منحها المشروعية، فيما حظر أية وجهة نظر خلافية في مقابلها.

وفي الحقبة التالية ساد الموقف التسلطي في فرض الآراء الكلامية، وتصنيف أية محاولة لاتلتقي مع الموقف الايديولوجي للسلطة ووعاظها لكونها ابتداعاً ومروقاً وانشقاقاً على وحدة الأمة، وجرى تقنين هذا الموقف الايديولوجي بنص كتبه القادر بالله (٣٨١-٤٤٢هـ) واشتهر باسم ((الاعتقاد القادري القائمي)) وتبنى هذا الاعتقاد رؤية الحنابلة، وانحاز باسراف الى مواقفهم، بينما استهدف بقية المسلمين، واستباح دماء بعضهم، لمجرد تمسكهم بمعتقد يخالف ما جاء فيه، فمثلاً ورد فيه ان ((من قال انه(القرآن) مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر، حلال الدم بعد الاستتابة منه)). وعندما أخرج القائم بأمر الله ((الاعتقاد القادري)) سنة ٤٣٧هـ وقرئ في الديوان، بحضور الزهاد والعلماء، كان ((ممن حضر الشيخ أبو الحسن علي بن عمر القزويني، فكتب خطه تحته، قبل أن يكتب الفقهاء، وكتب الفقهاء خطوطهم فيه: ان هذا اعتقاد المسلمين، ومن خالفه فقد فسق وكفر)) وذكر ابن الجوزي ان القادر بالله استتاب المعتزلة سنة ٤٠٨هـ ((فأظهروا الرجوع، وتبرأوا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للاسلام، وأخذ خطوطهم بذلك، وامتثل يمين الدولة وأمين الملة ابو القاسم محمود لأمر القادر بالله، واستن بسننه في أعماله التي استخلفه عليها، من خراسان وغيرها، في قتل المعتزلة والرافضة والاسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة، وصلبهم وحبسهم ونفاهم، وأمر بلعنهم على منابر المسلمين، وابعاد كل طائفة من أهل البدع، وطردهم من ديارهم، وصار ذلك سنة في الاسلام)).

ومن المؤسف ان تشيع نزعة التكفير في تلك الحقبة، وتستهتر السلطة في ملاحقة أفكار الناس وتفتيش معتقداتهم، فتصلبهم وتلعنهم لمجرد خروجهم عن معتقد الحاكم.

وكان ((الاعتقاد القادري)) أخطر وثيقة تصادر حق التفكير وحرية فهم العقيدة، جرى تداولها مدة ليست قليلة، وصارمن التقاليد المتعارفة ان تتكرر تلاوتها كل مرة في المناسبات المهمة وقتئذ، وقد حرصت السلطة على اسباغ المشروعية على هذا الاعتقاد، عبر حشد فتاوى وآراء جماعة من الفقهاء والمحدثين، ففي سنة ٤٦٠هـ تلي ((الاعتقاد القادري)) في الديوان بناء على طلب الفقهاء وأعيان أصحاب الحديث، الذين أجمعوا على ان من لا يكفر من يكفرهم ((الاعتقاد)) فهو كافر.

لقد عملت تلك المواقف الايديولوجية السلطانية على تأمين بيئة تزدهر فيها ((الاخبارية العقائدية))التي تستند الى ظواهر النصوص كمرجعية في تقرير المعتقد، وتفهم آيات القرآن الكريم والأخبار المروية عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فهماً حرفياً قشريا متحجراً، من دون ان تتيح للذهن فرصة في تدبر الكتاب وتأمل الاحاديث، وتأويل ما تشابه منها.

وبمرور الأيام اتسع نفوذ ذلك التيار الظاهري في الاعتقاد، وظل على الدوام مصدراً للمواقف الصارمة العنيفة تجاه عامة المسلمين، من الذين ينهجون نهجاً مغايراً، ويستندون الى العقل في فهم وتحليل قضايا المعتقد، ويمارسون الاجتهاد الكلامي، ويرفضون الترسيمات الايديولوجية الجاهزة، ويحرصون على غربلة ومحاكمة الآراء الكلامية، واصطفاء ما ينهض الدليل على اثباته، ونفي ما سواه.

وتواصل موقف التيار الاخباري الظاهري في مناهضة محاولات عقلنة البحث العقائدي، وتطوير بنية علم الكلام، ولم يكف عن الدعوة الى إقصاء الموروث الكلامي بتمامه، والتخلص بالتالي من الجهود العقلية الغزيرة، التي تمثل واحدة من أبرز تجليات العقل الاسلامي في تعاطيه مع الوحي. يكتب أحد دعاة هذا التيار:((لم يلحق بالدين ضرر بعداوة الحكماء والفلاسفة، مثلما لحق به بسبب أصدقائه الجهلاء، وهم المتكلمون، وهم لاشك اعداؤه الحقيقيون، وإني أقول ولا أخاف في ذلك لومة لائم: ان الجزء الكبير من علم الكلام يستحق أن يحرق كلياً، وعلى الأكثر يستحق أن يحفظ في متحف، ليكون عبرة ودرساً للآخرين)).

اننا لاننكر ان علم الكلام يعبر عن فهم المتكلمين للعقيدة، وفهمهم كأية معرفة بشرية يصطبغ بطبيعة الزمان والمكان، والنمط الحضاري للحياة،ومستوى تطور العلوم والمعارف الأخرى، وان انتماء علم الكلام للاسلام انما هو كإنتماء المعارف الاخرى، أي بمعنى انه معرفة انتجها المسلمون، مثلما أنتجوا الفلسفة، والتصوف والعرفان، والفنون، والآداب، ... وغيرها، ولا يبرر انتاج المسلمين تلك المعارف تعاليها على النقد والمراجعة، لان انتسابها الى الاسلام ليس سوى كونها ولدت في فضاء التجربة الاسلامية، وفي سياق مسار حضارة المسلمين. ولعل علم الكلام من أوضح ما أنجزه عقل المسلمين في تشبعه بالمؤثرات السياسية والثقافية المختلفة للمحيط الذي ولد فيه، وهذا ما يحكيه الاختلاف والتباين الفاحش في المقولات الكلامية. لكن اهمية علم الكلام تكمن في اطلاق حرية الاجتهاد العقائدي، واختلاف المقولات ووفرتها تجسد وجهات نظر متنوعة أفضى لها التفكير الكلامي، مضافاً الى انها علامة فارقة على منح كل مسلم الحق في اختيار عقيدته، بل حرمة تقليد الغير.

إن حظر التفكير الكلامي، والاقتصار على ظاهر النصوص، ومنع أية محاولة لعقلنة الفهم العقيدي، يفضي الى تعطيل العقل، وشيوع نزعة نصوصية اخبارية تبناها المحدثون، وروج لها ودعمها بعض الخلفاء الأمويين في فترة مبكرة من التاريخ الاسلامي، وبالتالي سيادة التقليد في أصو ل الدين، بالرغم من ان هذا النوع من التقليد لم يقل بجوازه أحد سوى هؤلاء، فقد أجمع المتكلمون على منع التقليد في الاصول، واستدلوا بالعقل تارة وبالكتاب الكريم تارة أخرى، قال أبو منصور الماتريدي :((ان التقليد ليس مما يعذر صاحبه، لإصابة مثله ضده)).

ويقول القاضي عبد الجبار الهمذاني في بيان فساد التقليد:((ان القول به يؤدي الى جحد الضرورة؛ لأن تقليد من يقول بقدم الاجسام ليس بأولى من تقليد من يقول بحدوثها، فيجب إما ان يعتقد حدوثها وقدمها وذلك محال، أو يخرج عن كلا الاعتقادين، وهو محال أيضاً ... ويدل على ذلك انه تعالى لم يقتصر في كتابه في التوحيد والعدل وسائر المذاهب على ذكر الخبر عنها، بل نبه عن طريق الظن فيها، ولو كان التقليد حقاً لوجب تقليده تعالى، ولاستغنى عن طريق البيان في ذلك، ولوجب ان يقتصر صلى الله عليه أيضاً على الدعاوى من دون اقامة البراهين ...)).

ونقل الشوكاني عن ابي الحسين القطان قوله: ((لا نعلم خلافاً في امتناع التقليد في التوحيد.وحكاه السمعاني عن جميع المتكلمين وطائفة من الفقهاء. وقال امام الحرمين في الشامل: لم يقل أحد بالتقليد في الأصول إلا الحنابلة. وقال الاسفراييني: لا يخالف فيه إلا أهل الظاهر)).

ويكتب العلامة الحلي: ((أجمع العلماء كافة على وجوب معرفةالله تعالى وصفاته الثبوتية والسلبية، وما يصح عليه وما يمتنع عليه، والنبوة والامامة والمعاد، بالدليل لا بالتقليد)). ويذكر في موضع آخر: ((المسألة اما ان تكون من باب الأصول، إو من باب الفروع، فالأول لا يجوز التقليد فيه اجماعاً، واستدل على ذلك بالعقل والكتاب.)).

ويقول صاحب معالم الدين:((والحق منع التقليد في جميع أصول العقائد، وهو قول جمهور علماء الاسلام، الا من شذ من أهل الخلاف، والبرهان الواضح قائم على خلافه فلا التفات اليه)).

ولا نريد ان نسرف في حشد أقوال العلماء الذين منعوا التقليد في الأصول، ولكن كنا نود ان نشير الى الاجماع على هذه المسألة، في مقابل التيار الظاهري المناهض للتفكير الكلامي.

ويبدو ان هذا التيار انبعث من جديد في الجماعات السلفية التي تستغرق في القشور، فيما تضحي بروح الشريعة والمقاصد الكلية للدين، وتستأنف الفهم الحرفي للنصوص الذي يغيّب العقل، ويتجاهل العصر وما يحفل به من متغيرات شتى، وتقدم صورة منفرة للاسلام. والسمة المميزة لهذه الجماعات هي التمسك بتقليد وحفظ آراء وفتاوى الرجال الماضين. وغلق باب الاجتهاد في العقيدة والشريعة، وكأن الحياة ساكنة، والزمان يكرر نفسه، وكأن الماضين امتلكوا الحقيقة الكلية، وادركوها بسائر أبعادها، ونحن لا وظيفة لنا إلا اقتفاء اثرهم في كل شيء. ولم يتنبه هؤلاء الى ان ذلك تبسيط في تصور حركة الزمان، ومحاولة ساذجة لإختزال عصور عديدة من التطور والتغيير في الحياة، فإنه كلما تنامى واتسع نطاق التغيير الاجتماعي والتحولات المختلفة في الحياة لابد ان يتنامى نطاق الاجتهاد، ويتسع افقياً وعمودياً تبعاً للمكاسب الجديدة في المعرفة، وتراكم معطيات الواقع وتنوعها.

وربما ينشأ هذا الموقف من الخلط بين العقيدة وفهم السلف لها، فإن العقيدة حاضرة في التراث من خلال بشر غير معصومين فإنهم حين يتعاطون مع نصوص الكتاب الكريم والسنة الشريفة وحقائق الوحي يكتسب فهمهم شيئاً من خصائص البشر ونقصه، ويلتبس وعيهم أحياناً بما يكتنف حياتهم من البيئة المحيطة بهم، والفضاء الذي يتحركون فيه، فلا يصح أبداً تمديد رؤيتهم ومفاهيمهم وكلماتهم الى عصرنا، ولا يصح توكيلهم في التفكير والحديث نيابة عنا، وانما ينبغي دراسة ميراثهم وغربلته، واستيعاد ما هو نسبي منه، وما كان يعبر عن تمثلهم روح العصر الذي عاشوا فيه.

ان الاجتهاد الكلامي يستوعب غربة الواقع بأزماته ومشكلاته المزمنة، ويتجاوز غربة التراث، ذلك ان التراث ينتمي الى واقع مضى، فالاصرارعلى استدعائه بتمامه يعني استدعاء ذلك الواقع، وبالتالي الغاء عنصري الزمان والمكان ، ونفي الصيرورة والتحول، والنزوع نحو سكونية لاتاريخية، يتكرر فيها الماضي والحاضر والمستقبل، وتغدو عملية التقدم هروباً من العصر، وتوغلاً في الماضي، واستئنافاً للأفكار والمواقف والنماذج التاريخية ذاتها.

وتتجلى قيمة الاجتهاد الكلامي في اصراره على التمييز بين الإلهي والبشري، بين المقدس وغير المقدس، بين الدين ومعرفة البشر الدين، بين العقيدة وادراك الانسان لها، بين الوحي الالهي والعقل الانساني، بين الكتاب الكريم وتفسيره، بين الفقه وفتاوى الفقهاء والشريعة الالهية المقدسة.

ان الاجتهاد الكلامي يطمح لاحياء نزعة التفكير الحر الذي شدد على الدعوة اليه القرآن الكريم في آيات عديدة، ويعمل على اختراق بل تحطيم الأسوار التي وضعها حول العقل اتباع التيار الظاهري وجماعاتهم من السلفيين، حتى باتت دراسة ومناقشة بعض القضايا الكلامية واللاهوتية في الاسلام من المحرمات اليوم، بينما كان يتداولها المتكلمون بالأمس من دون أية قيود أو ممنوعات عقلية، باعتبار التفكير فريضة كلف بها عامة المسلمين، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

ويرمي الاجتهاد الكلامي إلى دراسة التراث بموضوعية وأمانة، والتحرر من التحيزات الطائفية والقبليات المذهبية في البحث، تلك التحيزات التي تعمل على اقتطاع النص من سياقه، وتجريده من قرائنه، ثم تعسف في تأويله، بهدف التدليل على أية وجهة نظر تتبناها.

والدراسة العلمية الموضوعية للتراث تتطلب التوفر على خبرة ودراية في التعاطي معه، واستلهام روحه وعناصره الحية، والقدرة على توظيفها في منظومة الأفكار الكلامية الراهنة.

وكما هو معروف بين أهل العلم ان الاجتهاد في أي حقل من حقول العلوم الاسلامية مما لا يدركه كل أحد، وذلك لأنه يتوقف على دراسة جادة ومعمقة للتراث الاسلامي، ووعي دروبه ومسالكه المختلفة، مضافاً إلى الالمام بالقواعد والادوات الخاصة للاجتهاد في ذلك الحقل.

وبموازاة ذلك يتوقف الاجتهاد المعاصر في علم الكلام على تمثل روح العصر، والانفتاح على المكاسب الهائلة للعلوم الراهنة، خاصة العلوم الانسانية، والتخلص من الحساسية والوجل أو العقدة في التعامل مع معطيات العلم الحديث، فإن بعض العلوم الانسانية تطورت بدرجة توازي تطور العلوم الطبيعية والعلوم البحتة في الغرب، وهي ذات وشيجة عضوية بمناهج علم الكلام ومسائله ولغته ومنظومته المعرفية بأسرها، مثلما نلاحظ ذلك في فلسفة العلم، والهرمنيوطيقا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والانثربولوجيا، وغيرها.

ومن اللافت للنظر ان اهل العلم في حضارتنا تعاطوا مع ما وصل اليهم من معارف اثينا ومدرسة الاسكندرية والهند وفارس بلاوجل، فقد عملوا على ترجمة تلك المعارف ودراستها واستيعابها، واعادة انتاجها، حتى امست جزءاً من مكونات التراث، وتغلغلت بشكل واسع في علوم المسلمين، وقد كانت معارف الغرب حينذاك في بواكيرها، بينما نمت العلوم الغربية واتسعت في العصرالحديث، بنحو لم يسبق له مثيل، حتى ان العلوم الانسانية اليوم لا يمكن مقارنتها ببعض الاشارات البدائية قبل ٢٥٠٠سنة في التراث اليوناني.

ولعل الوجه الوحشي للغرب الحديث المتمثل بالاستعمار والنزعات العنصرية والعدوانية في التعامل مع الشعوب الاخرى، مضافاً إلى ظهور الأفكار المادية والالحادية والعبثية لدى بعض الاتجاهات الفلسفية والأدبية والفنية، هو الذي اسبغ على العلوم الحديثة الصورة الكريهة للغرب وحضارته، ونجم عن ذلك خلط بين العلم الذي يضيء بطبيعته الحياة وبين الغرب ونزعاته العنصرية، فتصور بعض منا العلم وكأنه يقترن دائماً بالحرب والقتل والتدمير.

نحن لاننكر تسرب البعد المذهبي والمركزية الغربية في العلوم الانسانية الحديثة، ولاننكر بعض التحيزات المعرفية فيها، غير أن ذلك لا يمنعنا من الانفتاح عليها، وتوظيف ما هو صالح منها؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها أخذها ولوكانت من أهل الضلالة.

أيها الموت... إستح قليلا!!

حسن النواب

لابأس بالموت
إذا كان رشيقا
سأرضى بالقلق
إذا هيأ لي
سريرا ونعاسا وإمرأة
سألتزم الصمت اليوم..
اليوم فقط

أحمد آدم
من قصيدة صمت

ليس على عادته هذا اليوم الشاعر أحمد آدم.. إبتسامته تبدو نحيلة.. وصلاته مختنقة ومرتبكة عند الفجر.. وفطوره كان الماء.. وصوته يبرقعه الاسى وبحة من الشجن.. يخطو دون هدى في بيته الكئيب من غرفة الى أخرى.. وبنظرات هلعة يبصر أطفاله وهم يتوسدون الحرمان.. كادت دمعة تغلي على شاطئ جفنة تهوي على يده لكنه سرعان ما تفادى سقوطها وهو يلعن الشيطان.. قلبه الوديع ليس بموطنه.. وروحه نافرة.. يضرب صدره فيسمع نحيباً ينبثق من لجة أسراره.. قرفص أمام باب الدار مرتجفا من غمامة مجهولة سورت جسده الرهيف.. ودخن بقايا سيجارة أحتفظ بها من ليلة أمس.. نفث دخانها.. فرأى أشباحا تترصده.. هز رأسه ولعن الشيطان مرة أخرى.. شطف وجهه وشم رائحة طيبة تندلع من جثة الماء.. وهب فجأة بصحو عجيب وإرتدى ملابسه على عجل وطبع قبلة دامعة على خد إبنه الصغير وغادر المكان.. في الطريق وجد رغبة عنيفة في صدره تأمره ان يتفقد الرصيف الذي كان يبيع عليه الكتب.. وحين وطئت قدماه المكان... صعق من رؤية رصيفه مغطى بالرماد.. وثمة دخان أحمر يتصاعد منه.. لايدري لماذا بسمل في سره؟؟

وحوقل؟.. وسرعان ماحانت منه نظرة مستجيرة الى باب قبلة الحسين.. همس بخشوع ادركني ياحسين.. وغاب في ضجة الصباح.. لايدري من اين جاء ذلك الطائر الغريد تلك اللحظات وموسق في شرايين دمه نغمات جنائزية.. ورف بجنحيه الصغيرين على وجهه الطعين وإختفى فجأة في (دشداشة) السماء.. قلت لكم ان الشاعر احمد آدم ليس على مايرام.. والبرهان ان جنازة خطفت من جنبه.. فردد باسما.. أيها الموت أستح قليلا.. وأغرب عني.. هاهو في جريدة المدى أخيرا.. لاشهية له في الكلام... ويصافح من يصادفه بقلب يخفق من شيء مجهول.. أراد ان يعاتب محرر الجريدة عن قصيدة راعشة له تاخر في نشرها.. لكنه وجد ان الصمت يجره الى غوص موحش في أعماقه.. وسرعان ماغادر المكان.. كان يشعر ان ثمة شبحاً يطارده ولاخلاص منه.. ضرب الهواء بكفه محاولا طرد تلك التهويمات عنه... فدهش ان اصابعه تسيل منها العبرات.. في كل أصبع حدقة تنزف دمعا بلون فجر جريح.. وتقاطر الاصدقاء على مخيلته.. أولهم كان الشاعر ماجد حاكم موجد.. بابتسامته الرعناء المفخخه.. فهذا الصديق طالما ينصب المكائد البريئة لصديقه آدم من شدة الحب.. ترى أين تخفي دمعك اللاهب الان ياموجد وقمر حياتك طرزت جثته الطلقات.. وتوالت صور الاصدقاء على شرفة الرؤيا شاهد بعضهم يحمل آسا بزهور سود ويتلو قصائده.. وبعضهم يوقد شمعاً بتولا على راحته.. لكن بزحمة المشاهد التي توالت على سهول عينيه رأى إبنه الصغير (منتظر) يدعوه ان يصلي العصر حتى يرتقي ظهره كعادته.. فتبسم آدم بحيرة وحنان وهمس لولده الغرنوق هذه المرة الاخيرة التي ادعك تصعد على ظهري ساعة الصلاة وتساءل.. لماذا كل هذه الخواطر المثقلة بغيوم الكحل تطاردني..؟؟ غربت الشمس وروح أحمد نافرة.. تصعد الى سقف فمه هلعة.. وتعود متعثرة الى مجاهيل غاباته الشاسعة.. حدث الامر بسرعة.. ثلاثة عقارب لعينة بلون الجمر جاءت لاهثة في غلس الظلام.. حطت واحدة على راحة يده.. فسال دمه مستغيثا على الرمل الجليل.. وحطت اخرى قرب صدغه.. وأحالت فضاءات رأسه المنير الى عاشوراء.. وثالثة استقرت في عش قلبه.. فتناثر الريش المدمى في سماوات غرفة نومه.. وتعالى النحيب من مآذن جوامع وحسينيات البلاد لقد أطفأ الظلاميون فنار كربلاء.. كان آدم يأتي الى رصيفه مبكرا.. ينشر الكتب تباعا ويجلس على علبة حليب فارغة.. وهو يدلك زجاج نظارته بكم قميصه الوحيد... وكنا جميعا نحج إليه عصرا لنتبادل آخر الاخبار.. وإذا ماغاب آدم عن رصيفه.. ذات يوم.. فهذا يعني ان لقاءنا قد أنفرط هو الاخر.. كان هو البريد المجاني للجميع.. فهذا الاديب ترك معه بعض الكتب لشاعر آخر وذاك إستأمنه حاجياته لحين عودته من مشاغله وثالث يقضي فراغه بالثرثرة والشكوى من النشر وآدم يلوذ بصمت حزين.. عسى أن يرق قلب أحد المارة ويشتري منه أي كتاب حتى يتمكن من شراء الخبز لعائلته.. وطالما عاد الى بيته بجيوب مليئة بالاحلام والهموم..

وخالية طبعا من النقود.. ويوم وصل الى الاردن وامضى في بيتي ليلتين كان حزينا متذمرا من كل شيء.. الفقر ينخب بعظمه.. وقلت له ياآدم لا ترجع أنشر جناحيك هنا وحلق معنا الى المنافي.. فأجابني بلوعة عائلتي كبيرة واجنحتي ستتهشم في بداية الطريق.. لاأقوى على فراقهم ياحسن.. ولكن ها أنت أيها الفنار.. يذبح بريق ضوئك فجأة.. وتدع الاصدقاء يجوبون شوارع كربلاء بظلام مفجوع.. ترى ماذا أفعل الان ياأحمد.. ودمعي المنفي يتساقط في غربتي دون معين.. هلا أدركتني ياأحمد.. وانت تقول..

إنهم يوسعون إحضاري
سينتهي إيقاع الاقامة..
تمتد أياديهم لساقيتي
إني اختنقت
وأنفرط الغبار علي!
علي!

-المقطع الاخير من قصيدة رحيل للشاعر احمد آدم.
-المقطعان الشعريان مستلان من قصيدتين حملتهما معي الى استراليا.. بعد لقائي الشاعر في الاردن لاخر مرة.
-الشاعر أحمد آدم إغتيل مع صديقه الصحفي على طريق بغداد كربلاء قبل أيام.

قصة قصيرة

رعونة

ربيعة ريحان
قاصّة من المغرب

لم يكن أمامي سوى صف من العجائز ، حين جلست ، في الحيز المتبقي ،
من انبعاجات المؤخرات . تزحزحت مرات . تقدمتُ و تأخرت . لم أفهم معنى الهمهمات من حولي . كان كل همي أن أجد نوعا من الراحة في قعدتي .
لفترة صرن يتفحصنني بكآبة ، هؤلاء القاعدات أمامي ، كما لو كن يتفحصن صورة في ألبوم . تأملت الحمرة وقد ساحت على شفاههن الضامرة المزمومة، وتأملت فروة رؤوسهن العارية . لماذا يفعلن ذلك بشيبتهن ؟. أمي كانت تضع المنديل دوما على رأسها ، حتى وهي تجلس في الأعراس والمناسبات . كان شعرها أملس كثيفا . لكنها لم تكن تتباهى به ، وتشد ضفيرته الطويلة إلى الخلف ، كما تفعل المرأة العابرة أمامي، أو ترسله براحة على ثدييها الصغيرين . هل كانت تخاف أبي ، الذي تزوجها وهي بعد طفلة ؟. أم هو الوجل من جدي وأعمامي، و سائر القبيلة ،التي تقاسمت وإياها الغرف وباحة الدار ؟.
حين عقبت مرة على عجائز، قاعدات في مأتم ، بشبه زينتهن ، سمعت صديقتي تقول:
. إنها مظاهر الحضارة ، لسن مثلك ، متخلفة .
تهكمت في داخلي : حضارة ؟.. ولم أقل لها إنهن ينمن بالتأكيد، هؤلاء الحضاريات، على إرث من البغضاء والحقد و القساوات . التفتت باستغراب نحوي وكأنها سمعتني. قلت لها باستياء :
. إن النساء قاسيات على النساء .
استعرت العبارة . كنت قرأتها في كتاب ما . وكنت أتذكر جدتي لأبي، البارعة في الرغي بسخاء، مسببة لأمي،الألم والخذلان .
أمي وجدتي لأمي ، كانتا مختلفتين . كنت أنتشي في حضنيهما بشذى عطرخاص ، و انهمار غامر من التحنان ، وكنت أقول لنفسي ،إن أمي لن تكون كتلك المرأة البدينة ، التي رأيتها في التلفزيون ، تحمل طفلتها الضارعة للختان .
لماذا أكره قعدات المآتم والأعراس ؟.. قالت لي ليلى وألحت : تعالي ، سيكون عرسنا مختلفا . في تلك اللحظة كان بودي لو أنها، بشعرها الرجراج ، كانت إلى جانبي. حالما تأتي سأعاتبها بالتأكيد. هي تدري كرهي لقعدتي مغلولة تحت الأبصار.
اخترقني الضجيج . العازفون في مكان ما يدوزنون الآلات . ممل ذلك ورتيب .
ماذا تريدين ؟.. هذه هي الأعراس .. أرتاح لفكرة أنني سأراوغ بعد حين .
مرت نساء أخريات يرفلن في البهجة والألوان . التفتت الرؤوس إليهن ، وسرى الهمس واللمس والغمزات . إلى أين يمررن هؤلاء ؟..
تنسحب نظرتي من جديد على صف العجائز. لابد وراء هذه التجاعيد والتشققات ،
وهذه الأنوثة الضامرة ، شرخ من الحنين والحرمان . دفن أزواجهن ، وصرن في الجمعات ، يخرجن مترحمات إلى المقابر، لتوزيع حفنات التين . لن تجرؤ إحداهن على مد حبل العتب ، من خلف عشب القبر وشوكه وحصاه ، ولن يسألن، لماذا تركن دوما، مهملات في غرف النوم الباردة المهجورة ؟..لم يكن الأزواج أبدا رجالا لهن .
لاضحك . الحركة والنأمة والابتسام، كما في لقطة تبطيئية.
حتى الحزن يحجرن فيه على الموجوعات . خادمة صديقتي كانت تضحك كثيرا ، برغم أنها كانت تترك خلفها أطفالها البؤساء . دخلت علينا بالشاي والثرثرة ، ذات غسق صيفي ساكن ، سكونا مريبا ، فسألت ليلى :
. بماذا يغريك هذا الصمت ؟..
. بماذا يغريك أنت ؟.. أعادت عليها ليلى السؤال .
نظرت الخادمة إلى البعيد ، فانفرجت أساريرها . قالت وهي تتنهد :
. هاد السكات غير ديال لغوات ❖..
كانت تمرح ، وتبحث عن معنى آخر للحياة . تستوقفني حين تراني :
. اضحكي ، ماذا سنأخذ من هذه الحياة ؟..
الوقت يجري . ليلى لم تظهر بعد . كل هذا اللغط والموسيقى والغرباء ، وأنا فيما يبدو سافرت بعيدا . صواني الشاي والحلوى . لابد أنني رفعت يدي اعتذارا . أصر النادل ثانية . اعتذرت حقا . سألتني الجالسة جنبي :
. تريدينه بالشكر ؟..
ضحكت في سري للفظة ، و حاولت قول شيء لأتملص .
اشتد الصهد والضيق و الالتباس . أومأت للنادل العابر أمامي برأسي . فهم إشارتي. فتح النافذة الجانبية العريضة ، وقبل أن يصطفق التيار ، ما بين الباب والنافذة ، كانت عجوز قد استشعرت ذلك ، بأنفها الحساس . قالت لجارتها حرنة مستفهمة :
منين آخيتي ماجي هاد الراندیفو ؟.. وكانت تقصد الكوروندیرطبعا.
ضحكت . سمحت لنفسي ، نكاية فيها وفي حساسيتها أن أضحك عاليا . قمت . كان صبري قد نفد.
في الباحة أمامي و الزحام، كانت الموسيقا والرقصات . اكتشفت ضيق الحجرة التي كنت فيها.
رأيت شعر ليلى من الخلف. اقتربت منها . كانت تقف بزينتها في الحلقة تصفق ، قريبا من الراقصات.
احتجت حين رأتني و استغربت:
. أين أنت . لماذا تأخرت ؟..
التفت بسخافة نحو الحجرة و اكتفيت بالإشارة بسبابتي . في العزف والضجيج لن تسمع صوتي .
رأيت الحيرة في عينيها :
. هناك ؟.. كنت هناك ؟..
أومأت لها برأسي فامتعضت ، واقتربت تجرني بساعدها الممدود .
بالكاد سمعتها تقول :
. إنها غرفة مخصصة للعجائز المتعبات . أنت مجنونة؟. .
كان جسمها يهتز من الضحك . فعلا ، من أدخلك هناك ؟..
وحدي فعلتها ، من حرجي وارتباكي . لجأت الى أقرب باب .
كان بابا عريضا يطل على ممر واسع . اقتربت من ليلى . كانت تصدح بزغرودة طويلة مولولة .
دفعتها في ظهرها ، وأومأت اليها بالذهاب . لم تصدقني .
قالت بجهد :
. الى أين ؟.
رفعت كتفي قرفا ، فأفهمتني من نظرتها ، أنني حيوان لا يعرف التسلية .
. ابقي .
قالت بإلحاح ، وهي تشد بصدق على يدي . لكنني من فرط الضيق ، كنت مكشوفة لها تماما . أشرت اليها أنني مستعجلة
. فهمت قصدي وعلقت بين الضجيج :
. مالك ؟..تعالي .
شدتني إليها ، لكن برودي أشعرها بالخذلان . أعفيتها من المزيد في الإلحاح .
. لالا لا ، أنت اليوم شاربة شي حاجة .
شاربة ؟. هه . لم أكن قد فعلتها بعد ، لكن من نزقي وضيقي ، وهذا العداء المجاني، لنساء متعبات ، جديرات بالوقار ، أ شعرني بحاجة إلى ضبط توازني .
حين أولتني ليلى ظهرها ، تسللت بخفة وسط الزحام . التفتت لتخاطبني ، قالت لي فيما بعد ، لكنها لم تجد لي أثرا. كنت طبعا قد غادرت .